قضايا وآراء

أخبار الخليج

العدد (17666) - السنة الحادية والخمسون - الأربعاء 22 صفر 1448هـ - 5 أغسطس 2026م

قراءة في تحولات الوعي الأمريكي تجاه إسرائيل

بقلم: د. عيد محمد ○

قبل سنوات عديدة، وبينما كنت أتابع دراستي للدكتوراه في جامعة جورج واشنطن، حضرت مقررًا عما يُعرف في الجامعات الأمريكية بـ«الصراع العربي الإسرائيلي». كانت أستاذة المقرر أستاذة زائرة من جامعة تل أبيب، ولم يكن مستغربًا أن تقدم الرواية الإسرائيلية للصراع أو أن تدافع عنها. لكن ما شد انتباهي لم يكن مضمون دفاعها، بل الطريقة التي كانت تطرح بها تلك الرواية باعتبارها أيضًا الرواية الأمريكية. في كل محاضرة تقريبًا، لم تكن الولايات المتحدة وإسرائيل تُقدَّمان كحليفين تجمعهما مصالح استراتيجية يمكن أن تتغير بتغير الظروف، بل كامتداد طبيعي لبعضهما بعضا. كان الحديث يوحي بأن الدفاع عن إسرائيل ليس مجرد خيار في السياسة الخارجية الأمريكية، وإنما جزء من تعريف أمريكا لنفسها، وكأن البلدين، سياسيًا وأخلاقيًا، جسدان بروح واحدة.

خرجت من تلك القاعة بسؤال ظل يرافقني سنوات: هل هذه العلاقة حقيقة تاريخية ثابتة لا تتغير، أم أنها نتاج مرحلة معينة في تطور المجتمع الأمريكي؟

بعد سنوات عديدة، وجدتني أستعيد ذلك السؤال وأنا أتابع المقابلة المطولة التي أجراها نائب الرئيس الأمريكي جيه دي فانس مع الإعلامي جو روجان. لم يكن ما أثار اهتمامي هو الجدل الواسع الذي صاحب تصريحاته بشأن جيفري إبستين، ولا ما طرحه من قناعات حول علاقات إبستين المحتملة بأجهزة استخبارات إسرائيلية، وإنما ما كشفته المقابلة من تحول أعمق في اللغة السياسية الأمريكية، وفي طبيعة النقاش الذي بات ممكنًا داخل أعلى مستويات السلطة في واشنطن.

الذي نقع فيه كثيرًا في العالم العربي هو أننا نتعامل مع الولايات المتحدة باعتبارها دولة تتحدث بصوت واحد، بينما يكشف حقل الدراسات الأمريكية أن أمريكا ليست صوتًا واحدًا، ولا هوية واحدة، ولا حتى رواية واحدة. إنها مجتمع واسع تتنافس داخله رؤى مختلفة حول معنى أمريكا نفسها، وحول دورها في العالم، وحول القيم التي ينبغي أن تمثلها.

لقد لفتت الباحثة الأمريكية إيمي كابلان الانتباه إلى أن الإمبراطوريات لا تُبنى بالقوة العسكرية وحدها، بل أيضًا بالثقافة، وبالقصص التي ترويها المجتمعات عن نفسها وعن الآخرين. فالصورة التي ترسمها أمة لنفسها تحدد، إلى حد بعيد، الطريقة التي ترى بها العالم وتتعامل معه.

ومن هذا المنظور، لا تبدأ السياسة الخارجية في أروقة وزارات الخارجية، بل تبدأ في المدارس والجامعات، وفي وسائل الإعلام، وفي الأفلام، وفي الخطاب العام الذي يحدد من هو «نحن»، ومن هو «الآخر».

ولسنوات طويلة، كانت إسرائيل جزءًا من هذه السردية الأمريكية. لم تكن مجرد حليف استراتيجي، بل كانت تُقدَّم في كثير من الخطابات السياسية والثقافية باعتبارها امتدادًا لقيم الديمقراطية الغربية، ورمزًا لجزء من الهوية السياسية الأمريكية. لكن السرديات، مثل المجتمعات، ليست ثابتة. إنها تتغير حين تتغير الأجيال، وتتبدل مصادر المعرفة، وتتغير الخبرات التي تشكل الوعي العام.

ومن هنا، ربما يمكن فهم التحولات التي شهدها المجتمع الأمريكي خلال العقدين الأخيرين.

فحين جاء الربيع العربي، انشغل كثيرون بمتابعة ما جرى في القاهرة وتونس وصنعاء ودمشق. لكن ما لم يحظ بالاهتمام الكافي هو أن تلك اللحظة التاريخية لم تبق داخل الحدود العربية. ففي الفترة نفسها تقريبًا، شهدت الولايات المتحدة حركة «احتلوا وول ستريت»، التي رفعت شعارات مختلفة، لكنها عبّرت عن قلق مشابه تجاه العدالة الاجتماعية، والتمثيل السياسي، واتساع الفجوة بين السلطة والمجتمع.

لم يكن ميدان التحرير وحديقة زوكوتي في نيويورك المكان نفسه، ولم يكونا يواجهان التحديات ذاتها، لكنهما عبّرا عن حقيقة أعمق: أن الأفكار لم تعد تسافر في اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق، كما كان يُفترض على مدى عقود، بل أصبحت تنتقل في كل الاتجاهات. صار الناشط الأمريكي يتابع ما يجرى في القاهرة، كما يتابع الشاب العربي ما يحدث في نيويورك. وأصبحت وسائل التواصل الاجتماعي تخلق فضاءً عامًا عابرًا للحدود، تتلاقى فيه التجارب الإنسانية مهما اختلفت سياقاتها.

ومنذ ذلك الوقت، بدأت تظهر ملامح جيل أمريكي مختلف.

جيل لم يتشكل وعيه عبر نشرات الأخبار التقليدية وحدها، بل عبر الهواتف الذكية، ومنصات التواصل الاجتماعي، والبث المباشر، والشهادات القادمة من مختلف أنحاء العالم. جيل أصبح أكثر استعدادًا لطرح الأسئلة، وأقل ميلًا إلى التعامل مع المسلمات السياسية بوصفها حقائق نهائية.

وفي هذا السياق، برزت القضية الفلسطينية بصورة مختلفة عما عرفته الأجيال السابقة. فلم تعد بالنسبة إلى كثير من الشباب الأمريكي مجرد ملف في السياسة الخارجية، بل أصبحت جزءًا من نقاش أوسع حول حقوق الإنسان، والقانون الدولي، واستخدام القوة، وحدود المسؤولية الأخلاقية للدول الديمقراطية.

ولا يمكن فهم هذا التحول من دون الالتفات إلى التغيرات العميقة التي شهدها المجتمع الأمريكي نفسه. فالعرب والمسلمون في الولايات المتحدة لم يعودوا مجرد جاليات مهاجرة تعيش على هامش الحياة العامة، بل أصبحوا جزءًا من نسيجها السياسي والثقافي، يدرسون في الجامعات، ويعملون في وسائل الإعلام، ويخوضون الانتخابات، ويشاركون في مؤسسات المجتمع المدني، ويقدمون رواياتهم بوصفهم مواطنين أمريكيين، لا مجرد مراقبين من الخارج.

وبالتوازي مع ذلك، لم تعد منصات التواصل الاجتماعي مجرد وسائل لنقل الأخبار، بل أصبحت فضاءات يعاد فيها تشكيل الرأي العام، وتتراجع فيها قدرة المؤسسات التقليدية على احتكار السردية. ولأول مرة منذ عقود، باتت صور الحروب وشهادات المدنيين تصل مباشرة إلى ملايين الأمريكيين، من دون المرور بالضرورة عبر الفلاتر التحريرية التي كانت تتحكم في تدفق المعلومات.

إن ما يجرى اليوم داخل الولايات المتحدة لا يمكن اختزاله في خلاف بين سياسيين، أو في انقسام حزبي بين الجمهوريين والديمقراطيين. إنه يعكس، بدرجة أكبر، صراعًا بين سرديات مختلفة حول معنى أمريكا، ودورها في العالم، وطبيعة القيم التي تريد أن تمثلها في القرن الحادي والعشرين.

ولهذا، فإن فهم الولايات المتحدة اليوم يتطلب أكثر من متابعة الانتخابات أو استطلاعات الرأي. إنه يتطلب فهم الحراك الأكاديمي والطلابي داخل الجامعات، والحركات الاجتماعية، والتحولات الديموغرافية، والثقافة الرقمية، والأجيال الجديدة التي تعيد تعريف السياسة خارج الأطر التقليدية.

فالدول لا تتغير فقط بتبدل الرؤساء، بل حين تتغير القصص التي يرويها الناس عن أنفسهم.

وربما يكون التحول الأهم الذي نشهده اليوم ليس تغيرًا في السياسة الأمريكية تجاه إسرائيل بقدر ما هو بداية إعادة كتابة إحدى أكثر السرديات تأثيرًا في التاريخ السياسي الأمريكي الحديث. وعندما تتغير السردية، فإن السياسة لا تلبث أن تلحق بها، وإن كان ذلك ببطء، وبقدر كبير من الجدل والمقاومة.

○ أكاديمي مختص في الدراسات الأمريكية.

تأملات في مضامين الكلمة السامية لجلالة الملك

بقلم:
د. نبيل العسومي

الكلمة السامية التي تفضل بها حضرة صاحب الجلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين المعظم أيده الله القائد الأعلى للقوات المسلحة خلال حضور جلالته تمرين «درع البحرين» المشترك هي رسالة قوية وواضحة بأن أمن الخليج كل لا يتجزأ، وأن الدفاع عن منطقتنا الخليجية هو أساس استقرارنا وأمننا والمحافظة على الإنجازات التي حققتها بلداننا الخليجية في ظل قياداتها الحكيمة التي سخرت كل إمكانياتها ووظفتها لتوفير الأمن والأمان لشعوبنا الخليجية ولتحسين مستوى معيشتنا.

كذلك فإن هذه الكلمة السامية تعد رسالة واضحة لإيران بأن دول الخليج تقف صفا واحدا في التصدي للاعتداءات الإيرانية الآثمة على دولنا وشعوبنا ومنشآتنا الحيوية وتمثل الموقف الخليجي الموحد في هذه المشاركة الخليجية في هذا التمرين المشترك حيث شاركت كل من المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة ممثلة في «لواء حمد» و«سرب محمد بن زايد» ودولة الكويت وسلطنة عمان ودولة قطر وقوات درع الجزيرة، تأكيدا لوحدة الصف الخليجي في مشهد جسد الوحدة الخليجية في أبهى صورها، وأكد عمق الروابط التي تجمعنا نحن أبناء الخليج العربي ووحدة مصيرنا المشترك في ظل هذه الظروف الاستثنائية الصعبة التي يمر بها الإقليم.

إن حضور جلالة الملك حمد بن عيسى آل خليفة ملك مملكة البحرين المعظم للتمرين المشترك يؤكد الأهمية الكبيرة التي توليها مملكة البحرين على أعلى المستويات لهذا التمرين الذي يتم تنظيمه في ظروف استثنائية تعيشها المنطقة الخليجية وانطلاقا من القناعة التامة بأن قوة دولنا تكمن في وحدتنا وتضامننا وتنسيق جهودنا ووحدة قرارنا باعتبارها الركائز الأساسية للمحافظة على أمن وسلامة بلداننا وسيادتنا الوطنية وحماية حدودنا ومياهنا الإقليمية من أي مخاطر أو اعتداءات أو تهديدات، وذلك من خلال بناء قوة عسكرية مشتركة ضمن منظومة خليجية واحدة قادرة على الدفاع عن بلداننا والتصدي لمحاولات الأعداء الإضرار ببلدان الخليج أو محاولة إلحاق الأذى بها سواء من جانب النظام الإيراني المتطرف أو غيره من القوى التي تضمر الشر لنا.

لقد أكدت الكلمة السامية لجلالة الملك أن تنسيق المواقف الدفاعية والأمنية هي بالأساس للدفاع عن بلداننا وليس للتصعيد أو التهديد فالدول الخليجية معروفة للجميع بأنها دول تدعو إلى السلام دائما وإلى التعايش السلمي واحترام خيارات الشعوب وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للغير انطلاقا من سياستها الخارجية المعتدلة.

وقد تضمنت الكلمة السامية لجلالة الملك استشهادا بالرسالة المحمدية التي أكدت فضل الرسالة المحمدية على الأمة الفارسية، التي تؤكد أن الخلاف بين العرب والفرس ليس دينيا، والتي لم تعطها إيران أي اعتبار من خلال اعتداءاتها على دول مجلس التعاون، وأن الخلاف معها هو سياسي وأيديولوجي، فالنهج الإيراني المتطرف لم يراع مبادئ حسن الجوار ولا قيم العقيدة الإسلامية التي تجمعنا.

لقد كانت الكلمة السامية بمثابة رسالة سلام تجمع بين قوة وصلابة ووحدة الموقف الخليجي وقدرته على الدفاع عن أمن واستقرار بلادنا، وفي ذات الوقت دعوة إيران إلى إقامة علاقات مع دول مجلس التعاون قائمة على الثقة والاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية.

إن إيران وعلى مدار أكثر من أربعة عقود ونصف العقد من الثورة لم تجلب للمنطقة إلا الدمار والخراب، شاهدنا ذلك في العراق ولبنان واليمن وقبلها في سوريا، فضلا عن محاولاتها التدخل في شؤوننا الداخلية من خلال التحريض ومحاولات تصدير الثورة فضلا عن أن الشعوب الإيرانية تعيش اليوم في أسوأ حالاتها.

ولذلك على القيادات الإيرانية المتطرفة استخلاص الدروس المستفادة وخصوصا بعد الضربات الموجعة والمؤلمة التي تلقتها خلال المواجهة مع الولايات المتحدة الأمريكية وإعادة النظر في علاقاتها مع دول الجوار التي تدعو دائما إلى السلام وفتح صفحة جديدة عنوانها التعاون والتعايش السلمي وحسن الجوار لما فيه خير وصالح الشعوب التي تنشد السلم والأمن والأمان والاستقرار.

التحرك الفلسطيني لمواجهة الهجمة الاستيطانية الفاشية الجديدة

بقلم:
د. مصطفى البرغوثي ○

لن تكون جريمة الاحتلال ومستوطنيه الإرهابيين في قرية تل في محافظة نابلس في الضفة الغربية أمراً عابراً؛ إذ جسّدت في الواقع التحول النوعي الذي تمر به إسرائيل، التي نشأت من خلال مشروع استعمار استيطاني إحلالي، من الاستعمار العنصري إلى الفاشية.

ما جرى في قرية تل مؤخرا كان تلخيصاً لكل ما يجري في الضفة الغربية طوال السنوات الماضية، استيطان استعماري منفلت من عقاله، ومحصّن بالكامل من أي عقوبات عربية أو دولية، وصل إلى حد نشر أكثر من 500 مستعمرة وبؤرة استيطانية تحاصر وتخنق القرى والمدن الفلسطينية، وتستولي بالسرقة الوقحة والسافرة على أراضيها، ومياهها، ومواردها الطبيعية وأجوائها، بل تغتصب بالكامل حيّزها الجغرافي.

هناك عصابات إرهابية منظّمة تشنّ يومياً ما لا يقل عن 15 هجوماً على القرى والمدن الفلسطينية، تحرق البيوت والمركبات، تقتلع الأشجار، وتدمّر الممتلكات، وتهجّر التجمعات السكانية بقوة السلاح، محاولة أن تكرر ما قامت به عصابات الإرهاب الصهيونية، مثل الهاجاناه وشتيرن وايتسيل عام 1948 لتنفيذ النكبة وتهجير الشعب الفلسطيني. واليوم يمتزج المستوطنون وجيش الاحتلال، ويحملون أسلحته ويوظفونه ليس فقط لحماية أعمالهم الإرهابية، بل المشاركة فيها. والحديث عن عصابات إرهاب يقودها ويمولها وزراء مستوطنون فاشيون، من أمثال بن غفير وسموتريتش، بدعم كامل من رئيس وزراء إسرائيل المطلوب لمحكمة الجنايات الدولية بنيامين نتنياهو.

لم يعد الأمر يقتصر على عشرات آلاف المستعمرين المستوطنين، بل عما لا يقل عن 850 ألف مستعمر يشكلون قاعدة سياسية كبيرة، لحكومة الإبادة الجماعية، ويسيطرون على مواقع قيادية كبرى في جيش الاحتلال، مثل قائد المنطقة الوسطى، ورئيس جهاز الشاباك، وغيرهم، ويتحالفون مع أركان التطرّف العنصري التلمودي، كوزير جيش الاحتلال كاتس، ونتنياهو نفسه.

ويجري هذا كله تحت عنوان «حسم الصراع» الذي يردّده الوزراء والقادة الإسرائيليون، فما الذي يقصدونه بالحسم في مواجهة بين أكبر وأقوى جيش في المنطقة يمتلك أحدث الأسلحة والقنابل النووية، ويتلقى دعماً غير محدود من الولايات المتحدة، وأجهزة استخباراتية تفتش كل شارع وبيت وهاتف وصوت في الضفة الغربية، وبين سكان مدنيين عزل يعيشون تحت الاحتلال مع سلطة مجردة بالكامل من صلاحياتها وعاجزة عن توفير أي حماية لهم.

الحسم في العرف الإسرائيلي استكمال مشروع الاستعمار الاستيطاني الإحلالي بضم الضفة الغربية، بما فيها القدس، وسلب أراضيها، وتهويدها والضغط بكل الوسائل لتحقيق الهدف النهائي بتهجير سكانها وسكان قطاع غزة وتطهيرهم عرقياً.

التحول الذي جرى في بلدة تل أن كل المنظومة الإسرائيلية انتقلت من الخنق، والحصار، والتدمير وسرقة الممتلكات إلى أسلوب القتل المباشر للفلسطينيين، أي الإرهاب بالاغتيال والقتل. ولتبرير هذا، انبرى الإعلام الإسرائيلي للحديث عن «عمليات إرهابية فلسطينية»، وأعلن بدء «عملية عسكرية» واسعة في الضفة الغربية. والغرض من استخدام كلمة «عملية عسكرية» تكرار التزوير الإعلامي الذي استخدم في الانتفاضة الثانية وما تلاها، أن ما يجري في الضفة الغربية حرب، أو صراع عسكري بين جيشين، لإخفاء حقيقة أن ما يجري قمع وتنكيل جيش وعصابات إسرائيلية إرهابية لشعب أعزل يعيش تحت الاحتلال.

وذلك كله يؤكد ما استُنتج بسكوت غالبية المجتمع الإسرائيلي وتأييدها للإبادة الجماعية في غزة، والآن للإرهاب الاستيطاني في الضفة الغربية. بانتقال المنظومة الإسرائيلية بكل مكوناتها من العنصرية الاستيطانية إلى الفاشية في مشهد لم نرَ مثله منذ صعود النازية في ألمانيا قبل الحرب العالمية الثانية، التي ذهب ضحيتها مئات الملايين من البشر بمن فيهم، ويا للمفارقة، يهود جرت تصفيتهم خلال الهولوكوست الإجرامي.

سمعتُ كثيراً من الاقتراحات بعد جريمة بلدة تل من متحدثين فلسطينيين لمواجهة كارثة الاستيطان، منها الدعوة إلى توفير حماية دولية عبر مجلس الأمن، مع علم المتحدثين أن الولايات المتحدة لن تسمح بهذا الأمر، وستستخدم الفيتو الأمريكي ضده من دون تردّد. وعبّر كثيرون عن الضيق المبرّر من التقاعس العربي والدولي إزاء ما تقوم به إسرائيل وإرهابيوها. كذلك لاحظ الجميع أن إسرائيل تستغل انشغال العالم والإعلام بما يجري في الخليج العربي والحرب على إيران، لتوسيع جرائمها ضد الفلسطينيين. ولكن ذلك وحده لن يعالج المشكلة، وعلاجها يبدأ من البيت الفلسطيني نفسه، والاعتماد على النفس قبل البحث عن إسناد الآخرين.

ولعل أفضل تجربة نضالية شعبية خاضها الشعب الفلسطيني كانت الانتفاضة الأولى، التي جسّدت الأدوات الثلاث التي يبدو الشعب الفلسطيني بأمسّ الحاجة إليها، الاعتماد على النفس، تنظيم النفس، وتحدّي (ومقاومة) إجراءات الاحتلال وإرهاب المستوطنين، مع تعزيز صمود الفلسطينيين وبقائهم في وطنهم، وهو العامل الحاسم في إفشال مخطّط الإرهاب الاستيطاني.

لكن النضال الفلسطيني لم يكن لينجح لولا وجود قيادة وطنية موحّدة توافقت على رؤية استراتيجية كفاحية مشتركة.

وهذا بالضبط ما يحتاج إليه الشعب الفلسطيني اليوم، قيادة وطنية موحّدة على استراتيجية وطنية كفاحية تتصدّى لمخاطر الاحتلال والإرهاب الاستيطاني، بالاعتماد على النفس، وتنظيم الذات وانتزاع زمام المبادرة على الصعيد الدولي أيضاً، بالمطالبة بالمقاطعة والعقوبات الشاملة على المنظومة الإسرائيلية ومستوطنيها التي لم تترك قانوناً دولياً من دون خرقه.

ولذلك مطلوب ثلاثة أمور أساسية جرى التهرب منها طوال السنوات الماضية: أن تتوافق قيادة منظمة التحرير والسلطة الوطنية على مبدأ تشكيل القيادة الوطنية الموحدة والانخراط فيها مع جميع القوى الفلسطينية الفاعلة. وأن نتخلى عن أوهام أوسلو الذي فرضته إسرائيل، وأوهام الحل الوسط مع الحركة الصهيونية وتوافق على الانخراط في استراتيجية وطنية نضالية موحّدة، وآليتها الرئيسية في هذه المرحلة المقاومة الشعبية. والتخلص من العقيدة الأمنية التي فُرضت على السلطة الفلسطينية، التي بموجبها على الفلسطينيين توفير الأمن لمن يحتلونهم من دون أن يكونوا قادرين على حماية شعبهم وأنفسهم من ذلك الاحتلال، ومستعمريه المستوطنين.

لن يرحل الفلسطينيون مهما فعل الاحتلال، فقد تعلموا من تجاربهم عامي 1948 و1967، ولكنهم جديرون بأن يُستجاب لمطالبهم بتشكيل قيادة وطنية موحدة على برنامج موحد، وهم يستحقون أن ترتقي القيادات السياسية الفلسطينية إلى مستوى تضحياتهم، وتتجاوز حالة العجز المؤسفة التي تدور في غياهبها.

○ الأمين العام لحركة المبادرة الوطنية الفلسطينية.

خريطة الطموحات في عصر التحول الرقمي

بقلم:
سعدية مفرح ○

صار سؤال الأطفال عن المهنة التي يحلمون بها مختلفاً. أسماء العلماء والكتّاب والمخترعين تراجعت، وحلّت محلّها في عصر التحول الرقمي الذي نعيشه أسماء صانعي المحتوى والمؤثّرين ومشاهير المنصّات. هذه الملاحظة لا تحمل حكماً أخلاقياً على أحد، ولا تنطوي على عداء للتقنية أو لوسائل التواصل، وإنّما تدفع إلى التأمّل في التحوّل الذي أصاب مفهوم القدوة، وفي الطريقة التي أصبحت بها الشهرة غايةً قائمةً بذاتها، بعدما كانت نتيجةً طبيعية لإنجاز يستحقّ أن يُرى.

كانت الشهرة، في أزمنة قريبة، تأتي متأخّرةً. يكتب الكاتب سنوات، ويجرّب الرسام عشرات اللوحات، ويقضي الباحث عمره بين الكتب والمختبرات، ثمّ يلتفت الناس إلى ما أنجزه. أمّا اليوم فقد انقلب المشهد في حالات كثيرة. الشهرة تسبق التجربة، وتمنح صاحبها مساحةً واسعةً للحضور، ثمّ يبدأ البحث عن إنجاز يبرّر هذا الحضور، أو يستثمره، أو يمنحه شيئاً من الشرعية. وهنا تتغيّر المعادلة بهدوء، ويتغيّر معها سلّم القيم الذي يتشكّل في وعي الأجيال.

لا تكمن المشكلة في أنّ شخصاً يحقّق انتشاراً واسعاً عبر منصّة رقمية، فالمنصّات أدوات مفتوحة، وفيها من يقدّم معرفةً حقيقيةً وفنّاً راقياً وتجاربَ ملهمة. الإشكال يبدأ عندما يصبح معيار النجاح هو عدد المتابعين وحده، وعندما تتحوّل الأرقام إلى شهادة كفاءة، ويغدو الانتشار دليلاً على القيمة، بينما يغيب السؤال الأهمّ: ماذا يقدّم هذا الشخص للناس؟ وماذا يبقى بعد أن تتغيّر الخوارزميات، أو تنصرف الأنظار إلى وجه جديد؟

المؤلم أنّ أصحاب الفكر والإبداع يعملون بصمت طويل، ويكتبون ويبحثون ويؤلّفون، بينما يتحرّك الضوء في اتجاه آخر. قد يمضي كاتب سنوات في إنجاز رواية أو دراسة أو ديوان شعر ثمّ يقرأ خبر صدور العمل عددٌ محدود من المهتمّين. وفي الجهة المقابلة تكفي لحظات قصيرة، أو مقطع عابر، أو حكاية مصنوعة بعناية، ليحصد صاحبها ملايين المشاهدات، ويصبح اسماً متداولاً في البيوت والمقاهي والجامعات. لا أحد يعترض على النجاح، ولكن من حقّ الثقافة أن تتساءل عن المعيار الذي صار يمنح هذا النجاح قيمته.

هذا التحوّل لا يصنعه مشاهير المنصّات وحدهم، وإنّما تشارك فيه مؤسّسات كثيرة، تبدأ بالإعلام الذي يكرّر الوجوه نفسها، وتمرّ بالإعلانات التي تقيس التأثير بالأرقام، وتنتهي بجمهور يمنح اهتمامه لمَن يظهر أكثر، لا لمَن يضيف أكثر. ومع تكرار هذا المشهد، يترسخ في أذهان الصغار أنّ الطريق الأقصر هو الطريق الأفضل، وأنّ الظهور أهم من البناء، وأنّ الصورة أسرع أثراً من الفكرة.

ومن هنا تتبدّل صورة القدوة. كانت ترتبط بالاجتهاد، والصبر، والموهبة، والإنجاز المتراكم، فأصبحت ترتبط بالحضور المستمر، والقدرة على جذب الانتباه، ومهارة صناعة المحتوى، حتّى لو خلا هذا المحتوى من أيّ قيمة معرفية أو فنّية. والنتيجة أنّ كثيرين صاروا يتعلّمون كيف يلفتون الأنظار، بينما يتراجع الاهتمام بالسؤال عن المعرفة نفسها، وعن القراءة، وعن التدريب، وعن الإتقان.

ولعلّ أكثر ما يدعو إلى القلق أنّ الشهرة أصبحت قابلة للتداول كما لو كانت سلعة. يمكن صناعتها، ويمكن تسويقها، ويمكن شراؤها أحياناً عبر حملات مدفوعة، أو تعاونات متبادلة، أو استراتيجيات محسوبة بدقّة.

أمّا الإنجاز فلا يزال يحتاج إلى الوقت، وإلى الموهبة، وإلى الخبرة، وإلى احتمال الفشل مرّات كثيرة قبل الوصول إلى نتيجة تستحقّ التقدير. لذلك يبدو الطريق الأوّل أكثر إغراءً، وأكثر سرعةً، وأكثر قدرةً على استقطاب الباحثين عن الاعتراف.

ولا ينبغي أن يتحوّل هذا الحديث إلى محاكمة لجيل كامل، لأنّ الأجيال الجديدة لم تختر البيئة التي نشأت فيها، هم يتعاملون مع أدوات صنعت إيقاعاً مختلفاً للحياة، ورسّخت فكرة أنّ كلّ شيء ينبغي أن يحدث بسرعة. لذلك فإنّ مسؤولية إعادة الاعتبار للإنجاز تقع أيضاً على الأسرة والمدرسة والجامعة والمؤسّسات الثقافية والإعلام، وعلى كلّ مَن يملك فرصةً لتقديم نماذج تستحقّ أن تُرى وأن تُسمع.

نحتاج إلى أن نروي قصص الباحثين الذين غيّروا حياة الناس، وإلى أن نحتفي بالمعلّمين، والأطبّاء، والمهندسين، والمترجمين، والمبدعين، وإلى أن نقدّمهم بوصفهم شخصيات تستحقّ الإعجاب. ونحتاج أيضاً إلى أنّ نعيد الكتاب إلى واجهة المشهد، وأن نمنح الفنون والعلوم المساحة التي تجعلها قريبة من الأجيال الجديدة، لأنّ الفراغ الذي تتركه الثقافة يملؤه أيُّ محتوًى آخر، مهما كانت قيمته محدودة.

لا أؤمن بأنّ الشهرة عيب، ولا أراها خصماً للإنجاز. الشهرة تصبح جميلة عندما تأتي وهي تحمل عملاً حقيقياً، وعندما تفتح الطريق أمام فكرة نافعة، أو كتاب مؤثّر، أو اكتشاف جديد، أو مبادرة إنسانية. أمّا حين تتحوّل إلى غاية مستقلّة، فإنّها تستهلك أصحابها بالسرعة نفسها التي صنعت حضورهم، وتترك خلفها أسماءً كثيرة يصعب تذكّر ما قدّمته فعلاً.

ويبقى السؤال معلّقاً أمامنا جميعاً: ماذا نريد أن يرى أطفالنا عندما يبحثون عن قدوة؟ وجهاً يعرف كيف يجذب الأنظار، أم عقلاً يعرف كيف يضيف معنى إلى الحياة؟ بين السؤالين تتحدّد صورة المجتمع الذي نبنيه، وتتحدّد أيضاً القيمة التي سنمنحها للمعرفة، وللعمل، وللإنجاز الذي يبقى، حتّى عندما تنصرف الأضواء إلى مكان آخر.

○ كاتبة وشاعرة كويتية.